



فصلية محكمة متخصصة في  
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 2023-2-16  
تاريخ القبول: 2023-3-1

## الحنابلة والصوفية الأوائل<sup>(1)</sup>

كريستوفر ميلشيرت

ترجمة:

محمد أنيس مورو<sup>(2)</sup>

[moroanis@yahoo.fr](mailto:moroanis@yahoo.fr)

### ملخص:

لا تتغيّر في هذه الدراسة بيان وجهة سلوك مسلك التصوّف من وجهة نظر شرعية إسلامية، ولا تقصّي العلاقة التي قامت بين الحنابلة والصوفية في العصر الوسيط الأعلى، بل تروم تبين العلاقة بين الرعيل الأوّل من حنابلة بغداد ومعاصريهم من منتسبي حركة التصوف الوليدة. لا شكّ في وجود صلة بين الحنابلة والصوفية الأوائل لكن هذه الصلة لم تكن وثيقة، بل شابهت الفتور في أحيان كثيرة. ولئن اشتركت الطائفتان في اتباع نهج الزهد والتنسك في البداية، فإنّهما اختلفتا لاحقاً عندما استحدثت الصوفية مفاهيمها ولغتها الخاصة على نحو لم يرق للحنابلة فصدعوا بالنكير عليها. صحيح أن أحمد بن حنبل قد أثنى على بشر الحافي، ولكنّه ناصب السري السقطي والمحاسبي العداء وأنكر على المتصوفة اجتماعهم على الذكر وذمّ سائر عاداتهم.

### الكلمات المفتاحية:

الصوفية الأوائل، الحنابلة، الزهد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن حنبل

(1) العنوان الأصلي للمقال:

The Hanābila and the Early Sufis, Early Islamic history ; Vol. 4: Scholarly traditions Year: 2014, Pages: 382-396.

(2) مترجم وباحث في اللسانيات، المعهد العالي للغات. (تونس).

للاقتباس: مورو، محمد أنيس، الحنابلة والصوفية الأوائل، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج 7، ع 1، 2023، 140-155.

© نشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص تنزيل البحث وقراءته والتصريف به مجاناً، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان إذا ما قد أجرى عليه أي تعديلات، ولا يمكن استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

## OPEN ACCESS

Received: 16-2-2023

Accepted: 1-3-2023



## The Hanābila and the Early Sufis

Christopher Melchert

Mohamed Anis Moro<sup>(3)</sup>[moroanis@yahoo.fr](mailto:moroanis@yahoo.fr)

## Abstract

This study does not intend to evaluate Sufism from an Islamic perspective, nor it will investigate the relationship between Hanbila and Sufis in the high-medieval era, but to show the relationship between early Hanbila of Baghdad and their contemporary followers of the then newly Sufism. Undoubtedly, there was a relationship between them, but it was not strong and was affected by apathy and tepid in a number of times. Though both sects followed the piety and asceticism approach, they later disagreed when Sufism created its own concepts which were not acceptable to Hanbalis and made them criticize Sufism publicly. It is true that Ahmed ibn Hanbal praised Beshr Al-Hafi, but he was hostile to As-Serri As-Seqti and Al-Mohasabi, and renounced Sufi's meetings for Dhikr and dispraised all their customs.

## Keywords:

Early Sufis, Hanabila, Asceticism, promotion of virtue and prevention of vice, Ibn Ḥanbal

(3) ranslator and researcher in linguistics, Higher Institute of Languages. (Tunisia).

Cite this article as: Moro, Mohamed Anis, The Hanābila and the Early Sufis, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V 7, issue 1, 2023: 140-155.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

## النص:

ظهرت الإرهاصات الأولى لنشأة المذهب الحنبلي والتصوف التقليدي في بغداد في القرن التاسع وصدور القرن العاشر<sup>(4)</sup>. وقد صار كلاهما ركنًا أساسيًا من أركان المنهج السني<sup>(5)</sup> في فترة [تُعرف في الأدبيات الغربية بـ]العصر الوسيط الأعلى. عُرف المذهب الحنبلي باستمساكه الشديد بالمبادئ الأخلاقية وعضه بالنواجذ على نهج صحابة النبي ﷺ، في حين اشتهر التصوف أحيانًا بالتهاون في مسألة الأخلاق وغالبًا بمفهوم التجربة الروحية الشخصية، ولذلك فشا بين الناس أن الحنبليّة والتصوّف ضدان لا يجتمعان. والحقّ أنّ معوّل مسلمي زماننا في ذمّ التصوّف هو أقوال العالم الحنبلي الأشهر ابن تيمية (المتوفى: 728/1328) الذي عاش في أواخر العصر الوسيط. ولكن الباحثين الغربيين (وقد عرف عنهم تعاطفهم مع المتصوفة) ذهبوا إلى خلاف ذلك ومالوا إلى عدّ التحنبل والتصوّف منهجين متكاملين. ويذهب «لويس ماسينيون» إلى أنّ الحنابلة كانوا ميالين كل الميل إلى الحلاج دوناً عن عصره «عمرو المكي، المالكي وسائر متصوفة العصر»<sup>(6)</sup>. بل إن جورج مقدسي أشار إلى أنّ طائفة من الحنابلة من بينهم ابن تيمية قد صارت في زمنٍ لاحقٍ في عداد المتصوفة، وأن تشنيع ابن الجوزي وابن تيمية [على سبيل المثال] طال أهل الغلو فحسب لا عين التصوّف<sup>(7)</sup>.

(4) بالنسبة إلى المذهب الحنبلي انظر:

Ignaz Goldziher, «Zur Geschichte der hanbalitischen Bewegungen», Zeitschrift für die deutsche morgenländische Gesellschaft 62 (1908):1-28; Henri Laoust, «Le Hanbalisme sous le califat de Bagdad (241/855-656/1258)», Revue des études islamiques 27 (1959):67-128; Simha Sabari, Mouvements populaires a Bagdad a l'époque «Abbaside», Centre «Shiloah» des Etudes du Moyen-Orient et de l'Afrique, Université de Tel Aviv, Etudes de Civilisation et d'Histoire Islamiques (Paris: Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien Maisonneuve, 1981), ch. 4; Christopher Melchert, The Formation of the Sunni Schools of Law, Studies in Islamic Law and Society 4 (Leiden, 1997), ch. 7.

بالنسبة إلى التصوّف التقليدي، انظر:

Louis Massignon, Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane (Paris, 1922); rev. edn. (Paris, 1954); Richard Gramlich, Alte Vorbilder des Situnums 1: Scheiche des Westens and 2: Scheiche des Ostens, Akademie der Wissenschaften und der Literatur, Mainz, Veröffentlichungen der orientalischen Kommission, Band 42/1, 2 (Wiesbaden, 1996).

(5) بالنسبة إلى المذهب الحنبلي انظر:

George Makdisi, «L'islam hanbalisant», Revue des études islamiques 42 (1974): 211-44, 43 (1975):45-76..

أما التصوف فانظر:

Marshall G. S. Hodgson, The Venture of Islam, 3 vols. (Chicago, 1973), esp. 2:203; also Ahmet T. Karamustafa, God's Unruly Friends (Salt Lake City, 1994), ch. 1.

(6) Louis Massignon, The Passion of al-Hallaj, trans. Herbert Mason, Bollingen ser. 98, 4 vols. (Princeton, 1982).

(7) George Makdisi, «The Hanbali School and Sufism», pp. 71-84 in Actas IV Congreso de estudios drabes e islamicos (Leiden, 1971); also idem, «L'islam hanbalisant», 43:45-60.

بالنسبة إلى العداوة بينهم وبين الصوفية انظر أيضًا:

Michael Cooperson, «Ibn Hanbal and Bishr al-Hafi: A Case Study in Biographical Traditions», Studia Islamica, no. 86 (1997), 71-101,

لا نتغيًا في هذه الدراسة بيان وجهة سلوك مسلك التصوّف من وجهة نظر شرعية إسلامية، ولا تقصّي العلاقة التي قامت بين الحنابلة والصفوية في العصر الوسيط الأعلى، بل نروم تبين العلاقة بين الرعيل الأوّل من حنابلة بغداد ومعاصريهم من منتسبي حركة التصوف الوليدة. كان لزهدي أحمد ابن حنبل وتابعيه جذور صوفية، وابن حنبل نفسه كان يجلّ بشرًا الحافي، لكنّه ناصب المحاسبي والسريّ السقطي العداء وذمّ بعض عادات المتصوفة التي صارت عماد التصوّف التقليدي. أما غلام خليل الذي وشى بالصفوية وتسبّب في محنتهم سنة 878-264/877 فلا نظنه معدودًا من الحنابلة. لكن يحسن التنبيه على أنّ الحنابلة لم تقم بينهم وبين أتباع الجنيد صلة، ولا غرو أن يرتبط التصوّف التقليدي خلال فترة القرن ونصف التالية بالمذهب الشافعي (في خراسان بوجه خاص) وبالعقيدة الأشعرية. والحقّ أنهم كانوا على علاقة بالزاهد البصريّ سهل التستري وهو من مشايخ البرهاري شيخ طائفة الحنابلة في عشرينات القرن الثالث/تسعينات القرن العاشر. ويبدو أن البرهاريّ نفسه كان يشاطر الصوفية الأوائل بعض آرائهم، ولاسيما أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

## نشأة التصوّف

انعقد ما يشبه الإجماع منذ صدور كتاب «ماسينيون» في عشرينيات القرن العشرين على أنّ التصوّف الإسلامي كان سليل حركة الزهد التي ظهرت قبله<sup>(8)</sup>. وقد أثبتت «جاكولين الشابي» في سبعينيات القرن ذاته أنّ صفة متصوّف لم تُطلق على كل من تلبس بالتصوّف أو سلك سلوك الزهاد والتّسك في المرحلة التي سبقت ظهور مفهوم التصوّف<sup>(9)</sup>. ولو تركنا أشكال التصوف الشيعي جانبًا، فإنّه يجوز لنا أن نقرن بين «حركة الزهد الإسلامي» و«التصوّف» بداية من القرن الحادي عشر، ولكننا نستبعد حدوث هذا الاقتبان قبلئذ. أطلق اسم الصوفية على أتباع هذه الحركة لالتزامهم ارتداء الملابس الصوفية وترك ما عداها من الألبسة القطنية أو الحريرية. يُعتقد أن أوّل من حمل اسم «صوفي» هو

= وكذلك،

Frederick de Jong and Bernd Radtke, eds., *Islamic Mysticism Contested, Islamic History and Civilization, Studies and Texts*, vol. 29 (Leiden, 1999).

(8) انظر:

Massignon, Essai

(9) Jacqueline Chabbi, «Remarques sur le développement historique des mouvements ascétiques et mystiques au Hurasan», *Studia Islamica*, no. 46 (1977), 5-72; «Réflexions le soufisme iranien primitif», *Journal asiatique* 266.

مصطلح «renuciant» بمعنى الزاهد والناسك اقترحه «ميشال كوبرسن»، ويبدو أفضل من مصطلح «ascetic»؛ لأنّه لا يتعارض مع مصطلح «صوفي».

أبو هاشم الكوفي (المتوفى: 150/767/768)<sup>(10)</sup>. ثم إن أحمد ابن حنبل (المتوفى: 241/855) قد خاطب المتصوّف البغدادي المشهور أبا حمزة فوصفه بالصوّفي. أما خراسان، فقد شهدت تنافساً بين ضربٍ من ضروب التصوّف وحركة زهد محلية تسمى الكزّامية. وقد أثبتت «جاكولين الشابي»، أن التصوّف دخل إلى خراسان من العراق في صدر القرن العاشر<sup>(11)</sup>.

اقترن التصوّف في بدايته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد أمر العباسُ ابن المؤمّل الصوفيّ هارونَ الرشيدَ بالمعروفِ فحبسه دهرًا<sup>(12)</sup>. وكان الصوفية الأوائل في مصر طائفة من المشاغبيين في الإسكندرية يأمرن بالمعروف وينكرون على الحاكم سنة 815-816/200<sup>(13)</sup>. وقد دخل أحد الصوفية على المأمون في العقد الثاني من القرن الثالث/عشرينيات القرن التاسع وسأله أيحكم المسلمين طوعاً أم كرهاً<sup>(14)</sup>. وأمر ابن طولون (حكم بين 884-868/270-254) بجلد أحد الصوفية والطواف به على ظهر جملٍ بسبب إنكاره عليه عقب صلاة الجمعة<sup>(15)</sup>. وفي بغداد، سأل أبو الحسين النوري (المتوفى: 908-907/295) عن دينارٍ للخمر فقيل هي للخليفة المعتضد فكسرها<sup>(16)</sup>. أما «بنان الحمال» الذي صجّب النوري والجنيد فقد أُوذي على يد «خمارويه» (حكم بين 896-884/282-270)، ابن ابن طولون، لتجرّته على أمره بالمعروف<sup>(17)</sup>. وفي زمن الجنيد زال الارتباط أخيراً بين التصوف وبين الأمر والنهي، وبات التصوّف يعرف من هنا فصاعداً بالتركيبية وتهذيب النفس وحسن الخلق مع العباد.

(10) R. A. Nicholson, «An Historical Enquiry Concerning the Origin and Development of Sufism», Journal of the Royal Asiatic Society 38 (1906):305.

انظر أيضاً:

Massignon, Essai, 131-33; rev. edn., 153-58.

(11) Jacqueline Chabbi, «Remarques.» On the Karramiya and Sufism.

انظر أيضاً:

Sarah Sviri, «Hakim Tirmidhi and the Malamatr Movement in Early Sufism», Classical Persian Sufism, ed. Leonard Lewisohn (New York, 1993), 583-613.

(12) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10 أجزاء (القاهرة، 1351-1357/1932-1938)، 10:159.

(13) Al-Kindi, The Governors and Judges of Egypt, ed. Rhuvon Guest, E. J. W. Gibb Memorial Ser. 19 (London, 1912), 162.

(14) المسعودي: مروج الذهب، تحقيق تشارلز بيلات، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، 11، 7 أجزاء (بيروت 1973-1974)، 4:314-316.

Les Prairies d'or, ed. C. A. C. Barbier de Meynard & B. M. M. Pavet de Courteille, 9 vols. (Paris, 1861-77), 7: 38-43.

أعرب عن شكري لميشال كوبرسن لإطلاعي على هذه القصة.

(15) بعد أن نفى الشيوخ والوجهاء تحدّثه نيابة عنهم: المقرئزي، كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، 8 أجزاء (بيروت، 1991)، 1:438.

(16) الذهبي: تاريخ الإسلام، تحقيق «عمر عبد السلام تدمري»، 65 جزءاً إلى حد الآن (بيروت، 1987)، 22 (300-291 للهجرة): 71.

(17) انظر بالنسبة إلى الأصول العراقية والعلاقة مع النوري والجنيد: السلمي: كتاب طبقات الصوفية، تحقيق، يوهانز بدرسون (لايدن، 1960). بالنسبة إلى الصدام مع خمارويه انظر السلمي: محن الصوفية، الذهبي، التاريخ، 23 (320-301 للهجرة): 509.

وفي العراق كانت طائفة من أهل الاعتزال المبكر معدودة من الصوفية<sup>(18)</sup>. وقد قرن الصوفية المعتزلة على ما يبدو بين خصلة نكران الذات الشائعة في معظم متصوفة ذلك العصر وبين مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد صار هذا المبدأ الأصل الخامس من أصول المعتزلة. ويبدو أن أول من ذكر أصول الاعتزال الخمسة هو «جعفر بن حرب» (المتوفى: 851-850/236)<sup>(19)</sup>. وقد أرسى نُسَاك آخرون في ذلك العصر صلة فريدة بينهم وبين الله وحرصوا على التأمي بزهد الجنيد وأتباعه من الصوفية. هؤلاء النُسَاك الذين لم يتلبسوا قط بالاعتزال ولم يُعرف عنهم حضهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سأطلق عليهم تسمية «الصوفية الأوائل». وقد ورد ذكر الصوفية الأوائل في المصنفات التي ألفت دفاعاً عن التصوف على غرار «كتاب اللمع في التصوف، للسراج» و«طبقات الصوفية، للسلي».

## أحمد والصوفية الأوائل

اتصف أحمد بن حنبل بشدة الورع وكان في ورعه قدر من الزهد والتنسك، ولا نستبعد أن تكون علاقته بالصوفية الأوائل حسنة. كان ابن حنبل يتبرك بأثار النبي ﷺ: لما جرده أعوان الخليفة من ثيابه ليجلدوه وجدوا شعرات للنبي ﷺ مصرورة في ثوبه<sup>(20)</sup>. وقد أوصى بأن يجعل عند موته على كل عين شعرة من شعر النبي ﷺ وشعرة على لسانه<sup>(21)</sup>. وقد وردت في مسنده معظم أحاديث الأبدال، وهم جماعة من الأتقياء كلما توفي أحدهم أبدل الله رجلاً غيرهم. ولا يخفى على القارئ طبعاً الشبه القائم بين الأبدال ومفهوم الأقطاب الذي ظهر لدى الصوفية لاحقاً.

(18) A. J. Arberry, «New Material on the Kitab al-Fihrist of Ibn al-Nadim», Islamic Research Association Miscellany, Islamic Research Association ser., no. 12, 1 (1948): 34.

ذكرت ساره سترومسا أن عقيدة الاعتزال في بداياتها اتخذت أساساً شكل حركة زهد:

The Beginnings of the Mu'tazila Reconsidered», Jerusalem Studies in Arabic and Islam, no. 13 (1990), 265-93.

بالنسبة إلى ظهور منهج الاعتزال التقليدي في الربع الأخير من القرن التاسع فقط، انظر:

Encyclopaedia of Islam, new edn., s.v. «Mu'ta zila»

وهو مدخل من تحرير دانيال جيماري مع العزو إلى يوسف فان إس.

(19) ترد الأصول الخمسة في قائمة مصنفات جعفر في كتاب

Ibn al-Murtada, Die Klassen der Mu'taziliten, ed. Susanna Diwald-Wilzer, Bibliotheca Islamica 21 (Wiesbaden, 1961), 73.

حسب فؤاد سيد، ظهر ذلك في الحاكم الجشي (البهقي): شرح عيون المسائل في علم الأصول: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد (تونس، 1974)، 282.

(20) صالح بن أحمد: سيرة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق فؤاد عبد المؤمن أحمد (الإسكندرية، 1981)، 63: أبو نعيم: الحلية، 202:9؛ حنبل ابن إسحاق: ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق محمد نغش (القاهرة، 1977)، 61.

(21) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا مع نعيم زرزور، جزءاً (بيروت، 1992)، 288:11.

وقد وردَ ذكرُ بعض الصوفية الأوائل في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، لكن معظمهم لم يكن على علاقة وثيقة بأحمد ابن حنبل وأتباعه. وقد ترجم السلمي في كتابه طبقات الصوفية لهؤلاء:

- معروف الكرخي (المتوفى ببغداد سنة 816-815/200)، 1: 381-389.
- أحمد بن أبي الهواري (المتوفى بدمشق؟ سنة 845-844/230)، 1: 78.
- محمد بن أبي الورد (المتوفى ببغداد سنة 877/263؟)، 1: 317 والصفحة التالية.
- أبو حمزة (المتوفى ببغداد سنة 883-882/269؟)، 1: 268 والصفحة التالية.
- الجنيد (المتوفى ببغداد سنة 911/298؟)، 1: 128 والصفحة التالية.

يروى ابن أبي يعلى عن القاضي يحيى بن أكثم أن معروفًا الكرخي ذكرَ أنَّه رأى أحمدَ فتنى فنقل عنه قولاً استحسنته: «من علم أنه إذا مات نُسي أحسن ولم يُسئ»<sup>(22)</sup>. ويروي ابن أبي يعلى أيضًا عن ابن الأعرابي (من أوائل من ترجم للصوفية وسائر النساك؛ توفي سنة 951/340؟)، أن أحمد عدَّ «معروفًا» من الأبدال وردَّ عنه تهمة قلة البضاعة في العلم (=علم الحديث) قائلا: «اللَّهُ، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف»<sup>(23)</sup>. كان معروف من أعلام الزاهد والمتنسكين ببغداد وقارب محله في الورع محل أحمد، لكن يبدو أن أحمد لم يذكر شيئًا عن ذلك في مصنفه الضخم «كتاب الزهد»<sup>(24)</sup>.

أما المتصوف الثاني الذي ورد اسمه في القائمة فهو أحمد بن أبي الحواري الذي كان محدثًا ذائع الصيت، ولا عجب إذن أن يُذكر في طبقات الحنابلة. ولا شكَّ أنَّه لقيَ أحمد ابن حنبل لدى مروره ببغداد. وأما الثالث فهو محمد بن أبي الورد وقد صحب أعلام التصوف مثل الجنيد والسري السقطي والمحاسبي وجلس إلى الجنيد<sup>(25)</sup>. وقد ذكره كذلك أبو بكر الخلال (المتوفى: 923/311) في طبقاته، وهو أول من صنّف في طبقات الحنابلة. ولكن استنادًا إلى أقواله التي رواها عنه السلمي، فقد كان ابن أبي الورد أقرب إلى الزهد منه إلى التصوّف ولم يكن له تلاميذ مشهورون من الصوفية. وقد اشتهر أيضًا حسبما يروي عنه ابن أبي يعلى عن الخلالٍ بأرائه الفقهية ولا سيما مسائل الوضوء وطهارة الماء، ونُقل

(22) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة، تحقيق محمد حامد الفقي، جزءان (القاهرة، 1952/1357)، 1: 381.

(23) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة 1: 382، ربما عن الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 14 جزءًا (القاهرة، 1931/1349)، 13: 201.

حول ابن العربي انظر:

Fuat Sezgin, Geschichte des arabischen Schrifttums, 9 vols. to date (Leiden, 1967-), 1: 660

جزيل الشكر لمايكل كوبرسن مرة أخرى على تنبيهي على ترجمة ابن أبي يعلى لمعروف.

(24) يذكر ابن حجر قائمة الرواة في كتاب الزهد لأحمد بن حنبل غير الموجودين في الكتب الستة: تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، تحقيق، إكرام الله إمداد الحق، جزءان (بيروت، 1996/1416). ابن حجر اشتغل على كتاب الزهد الذي تضمّن

نحو ثلث الأحاديث الموجودة في مسند أحمد (التعجيل 1: 243)؛ أي أنّ نحو 10000 حديث.

(25) السلمي: الطبقات، 236: أبو نعيم، الحلبة 10: 315.

عنه أيضًا قوله: «قال رجل لأحمد ابن حنبل: قيل لنا إنك كتبت من كتب الشافعي؟ فقال: ما كتبت منها شيئاً».

أما الرابع أبو حمزة البغدادي فكان أقرب الأربعة إلى التصوف التقليدي. يذكر ابن الأعرابي أنّ أول من عُقدت له حلقة بالمسجد الجامع ببغداد كان تلميذًا آخر من تلاميذ السري السقطي هو الحسن المسوحي (المتوفى: 870-869/256)، ولمّا توفّي، خلّفه أبو حمزة<sup>(26)</sup>. يذكر ابن الأعرابي<sup>(27)</sup> أيضًا أنّ أحمد ابن حنبل كان إذا جرى في مجلسه شيء من كلام الصوفية، يقول لأبي حمزة: «ما تقول فيها يا صوفي؟»<sup>(28)</sup>. وهذا يقيم الدليل على أنّ أحمد عرف مصطلح «صوفي» وأطلقه على أحد أوائل الصوفية. رغم أن السؤال بدا لي ساخرًا، فإنّ أبا حمزة كان يروي القصة على سبيل الفخر حسبما ينقله عنه ابن الأعرابي. وفي مطلق الأحوال لا تدلّ القصة على أنّ علاقة طويلة جمعت بين الرجلين، فعلى حدّ علمنا لم يلتقهما أحمد إلا مرة واحدة وعرف أنّه من الزهاد من لباسه.

كان الجنيد إمام التصوّف في زمنه وقد اجترح ضربًا جديدًا من المصطلحات والأساليب للتعبير عن تجربته الصوفية. عدّه ابن أبي يعلى من الحنابلة لمجرّد حكايته قصصًا حول أحمد، ولكن لا نجد له ذكرًا في طبقات الخلال.

في طبقات ابن أبي يعلى ورد ذكر متصوفين اثنين هما محمد بن الحسين البرغلاني (المتوفى 853-852/238) ومحمد بن منصور الطوسي (المتوفى ببغداد سنة 867/245؟) وكانا شيوخ محمد بن مسروق (المتوفى ببغداد سنة 910/298؟) إضافة إلى المحاسبي والسري السقطي<sup>(29)</sup>. ومحمد بن منصور مذكور أيضًا في طبقات الخلال.

ذكر ابن أبي يعلى كذلك اثنين من المتصوفة لكن لا نعرف صلتهما بابن حنبل<sup>(30)</sup> على وجه التحديد. والخلال أيضًا يذكر أحد كبار النساك ممن أثنى عليهم أحمد<sup>(31)</sup> هو بدر المغازلي (المتوفى: 895/282). ولكن ابن أبي يعلى ينقل أيضًا تبرّم أحمد من المحاسبي الذي أضلّ المغازلي فأخرجه إلى رأي جهم [بن

(26) ابن الأعرابي: طبقات النساك، عن الذهبي: سير أعلام النبلاء، 25 جزءًا (بيروت: مؤسسة الرسالة)، (تحقيق صالح سمير، 1983) 12: 581. يذكر ابن الأعرابي كذلك أن أبا حمزة وعظ أول امره في مسجد الرصافة (ناحية الرشق) ثم في مسجد مدينة المنصور (الجانب الغربي: ابن الأعرابي، عن الذهبي، السير [تحقيق علي أبو زيد، 1983] 13: 168).

(27) Sezgin, GaS 1:660f.

(28) ابن الأعرابي، عن أبي يعلى: الطبقات 1: 268؛ كذلك الذهبي: السير 13: 168.

(29) السلي: الطبقات، 233 = أبو نعيم، الحلية 10: 213.

(30) ابن أبي يعلى، الطبقات 1: 425، 36.

(31) ابن أبي يعلى: الطبقات 1: 78.



صفوان] في مسألة خلق القرآن<sup>(32)</sup>. أما الناسك المتعبّد المشهور بشر الحافي (المتوفى: ببغداد سنة 227/841؟) فقد عرفه الحنابلة الأوائل، وعزا إليه مصنّفو القرن التاسع على غرار المروزي في «كتاب الورع» (ورد ذكره في 18 كتاباً من كتب الطبقات دون غيره من أرباب التصوّف)<sup>(33)</sup>. أما ابن أبي يعلى فلم يترجم له (رغم ترجمته لأخته «مخّة»). عرف أحمد بشراً ومدحه لكنه نفى لقاءه<sup>(34)</sup> وعتب عليه<sup>(35)</sup>. ويرى ماسينيون أنّ خلافه مع بشر أعمق مما نقلته كتب التراجم<sup>(36)</sup>.

وأشهر أهل الورع من الحنابلة الذين صحبوا أحمد هما عبد الوهاب (المتوفى: 251/865؟) وإبراهيم الحربي (المتوفى: 285/899)، لكنهما ليسا معدودين من أعلام التصوّف. نخلص إذن إلى أنّ نزرا يسيراً من المتصوفة الأوائل جمعهم صلة وثيقة بأحمد. ورغم أن المنهج الأثري الحنبلي والتصوف البغدادي قد نشأ في البيئة ذاتها، فلا شكّ أن فراق ما بينهما قد حدث في فترة مبكرة جداً، في عصر معروف الكرخي على الأرجح.

ومما يُروى عن أحمد أيضاً تشنيعه على بعض الصوفية الأوائل ومن بينهم شيخا الجنيد السري السقطي (توفي ببغداد؟ سنة 253/867؟) والحارث المحاسبي (توفي ببغداد سنة 243/857-858). لم يرد ذكر السري السقطي في طبقات ابن أبي يعلى، ولكن ورد في أحد مصنفات الحنابلة الأخرى أن أحمد رماه بالكفر<sup>(37)</sup>. أما المحاسبي، فقد تعددت الروايات التي تنقل عن أحمد تشنيعه عليه لخوضه في الكلام<sup>(38)</sup>، وقد توارى عن أنظار الحنابلة إلى أن توفّي ولم يصلّ عليه سوى نفر قليل لم يتجاوز الأربعة أشخاص<sup>(39)</sup>. ومن أعلام أهل الحديث الذين حذروا من المحاسبي أيضاً أبو زرعة الرازي (توفي بالري سنة 264/878) الذي سئل عنه<sup>(40)</sup> وكتبه فأجاب: «إياك وهذه الكتب».

(32) ابن أبي يعلى: الطبقات 1:233.

(33) أحمد بن حنبل (أي المروزي): كتاب الورع، تحقيق زينب إبراهيم القاروط (بيروت، 1983).

(34) أحمد بن حنبل: الورع، 70.

(35) «لو تزوّج بشر لثمّ أمره»: الخطيب البغدادي: التاريخ 7:73.

(36) Massignon, Essai, rev. edn., 231

مقارنة ماسينيون بين بشر والمحاسبي غير مناسبة؛ لأنّ المحاسبي خاض في الكلام واعتنى بأصول الفقه خلافاً لبشر.

(37) يعقوب الحنبلي: كتاب الحروف عن ابن حجر: لسان الميزان 7 أجزاء (حيدر آباد، 1329-1331)، 3:14.

(38) الخلال: السنة عن ابن الجوزي، تليّس إبليس، تحقيق حيدر الدين (بيروت، 1970؟)، 187 = تحقيق عصام فارس الحرساني

(بيروت، 1994)، 219؛ ابن أبي يعلى: الطبقات 1:233؛ الذهبي: التاريخ 18 (241-250 للهِجرة):290. انظر كذلك:

Christopher Melchert, «The Adversaries of Ahmad Ibn Hanbal», Arabica 44 (1997):243f.

(39) الخطيب البغدادي: التاريخ، 8:215 ربما نقلاً عن السلي: كتاب محن الصوفية.

(40) الخطيب البغدادي: التاريخ، 8:215.

لم يناصر أحمد الصوفية الأوائل العداء فحسب بل ذمّ أيضاً عاداتهم و أفعالهم. وقد روى الخلال عن أحمد أنه «سئل عن رجل حفظ القرآن وهو يكتب الحديث، يختلف إلى مسجد يقرأ ويقرئ ويفوته الحديث أن يطلبه، فإن طلب الحديث فاته المسجد، وإن قصد المسجد فاته الحديث، فما تأمره؟ قال: بدا وبدا»<sup>(41)</sup>. «وسئل عن الرجل يسبح يتعبد أحب إليك، أو المقام في الأمصار؟ قال: ما السياحة من الإسلام في شيء»<sup>(42)</sup>. وسأله رجل: «إنّ عندنا قومًا يجتمعون فيدعون، ويقرؤون القرآن، ويذكرون الله. فما ترى فيهم؟ فقال أحمد: يقرأ في المصحف، ويذكر الله في نفسه، ويطلب حديث رسول الله ﷺ». فإنّ الاجتماع على قراءة القرآن والذكر بدعة حقيقة بالذمّ<sup>(43)</sup>. وبوجه عام يغلب على الظن أنّ تصوّف الجنيد وما انطوى عليه من اجتماع على العبادة لم يجد قبولاً عند أحمد.

## القرن التاسع

لم تذكر المصادر التي عنيت بأهل الحديث الحنابلة بعد زمن ابن حنبل معلومات كثيرة عن علاقتهم بحركة التصوف المزدهرة، باستثناء محنة الصوفية لما قام عليهم غلام خليل. كان غلام خليل (المتوفى ببغداد سنة 275/888) عابداً زاهداً وواعظاً محبوباً من العوامّ، وقد قدم إلى بغداد في بداية سنة 264/خريف سنة 877 سنة حدوث المحنة<sup>(44)</sup>. أنكر غلام خليل على بعض الصوفية قولهم في المحبة، وكان يرى أن الخشية أليقُ بمقام الخالق. وقد نجح في النهاية في إقناع أمّ الخليفة الفعلي الموفق بوضع محتسب بغداد تحت إمرته «وكتب من الصوفية نحو سبعين نفساً، واتهمهم بالزندقة، فوضعوا منهم جماعة في الحبس، وسافر بعضهم، واختبأ بعضهم».

وتعد المحنة التي تسبب فيها غلام خليل بالغة الأهمية؛ لأنها أحدثت تغييراً جذرياً في وجهة التصوف البغدادي. استطاع الجنيد أن يفلت من السجن بإنكار صلته بالتصوف وادعائه أنه طالب علم يتفقه على أبي ثور<sup>(45)</sup> تحديداً. اضطرّ الجنيد ومن لفّ لفه أن يختطوا لأنفسهم نهجاً صوفياً جديداً يشدد على انتهاج سلوك مقبول ظاهراً. وقد ظهرت مفاهيم جديدة ذات بنية ثلاثية مثل «الفرق-الجمع-الفرق» و«البقاء-الفناء-البقاء» عوضت المفاهيم الثنائية القديمة مثل «الفرق-الجمع» و«البقاء-الفناء». وبهذا المعنى يمكن للمتصوف كما في السابق أن يفنى فينسى الدنيا والآخرة وعقله ونفسه، لكنه فناء يتلوه

(41) ابن أبي يعلى، الطبقات، 1:23.

(42) ابن هانئ: مسائل الإمام أحمد، تحقيق محمد زهير الشاويش، جزءان (بيروت، 1400)، 2:176.

(43) ابن أبي يعلى: الطبقات، 1:255.

(44) الذهبي: السير 14 (تحقيق أكرم البوشي، 1983): 71 مقتبساً عن أبي نعيم، لكن التاريخ غير موجود في الحلية 10:250.

(45) ابن عطاء عن ابن الجوزي: نقد العلم والعلماء (1966) = تلييس، تحقيق علي، 1993 = تحقيق الحرساني، 225.

بقاء ورجوع إلى شهود الأثر بعد الغيبة عنه، فيما يشبه الصحو بعد السكر. وفي الوقت نفسه بدأ أن التصوف قد نحا مع الجنيد منحى داخليًا، فما عاد الصوفي معنيًا بجمع الحديث وبالتفقه ونحو ذلك<sup>(46)</sup>. هل كانت محنة الصوفية على يد غلام خليل مظهرًا من مظاهر العداوة الحنبلية إزاء التصوف الوليد؟ في الواقع نستبعد ذلك؛ لأن غلام خليل نفسه غير مذكور في طبقات ابن أبي يعلى. وقد شنع عليه المحدث الحنبلي أبو أيوب السجستاني (المتوفى بالبصرة سنة 275/889) لوضعه الحديث<sup>(47)</sup>. ثم إن الاستعصام بالسلطان (كما فعل غلام خليل) لاضطهاد الصوفية ليس من شيم الحنابلة. ويروي المروزي (المتوفى: 257/888) الذي خلف أحمد وعاصر غلام خليل أن أحمد نهى عن الاستنجاد بالسلطان لتغيير المنكر<sup>(48)</sup>.

ذهب كلٌّ من «ويلفريد مادلونج» و«فؤاد سزكين» إلى أن غلام خليل كان من المتمذهبين بالمذهب الحنبلي<sup>(49)</sup>، يقيم الدليل على ذلك نسبة «كتاب شرح السنة»<sup>(50)</sup> إليه. فباستثناء بضع فقرات في بداية الكتاب نكاد لا نجد فرقًا بين الكتاب المنسوب لغلام خليل والمقاطع التي عزاها ابن أبي يعلى إلى البرهاري (المتوفى ببغداد سنة 329/941)، أحد أشد المناضلين عن المذهب الحنبلي في عشرينيات القرن الرابع/ ثلاثينيات القرن العاشر<sup>(51)</sup>. فإما أن البرهاري كان موافقًا على آراء غلام خليل ونقلها كما هي حرفيًا، أو أن نسبة «شرح السنة» لغلام خليل غير صحيحة<sup>(52)</sup>. ولعل ما يرجح كفة نسبه لغلام خليل هو التحذير من أولئك الذين يتحدثون عن «الشوق» و«المحبة»، وهما مصطلحان أدخلهما أبو حمزة إلى بغداد<sup>(53)</sup>. ولكن هناك أدلة ترجح مع ذلك نسبه إلى البرهاري: أولًا نجد في «شرح السنة» تشديدًا على أفضلية الحديث النبوي على الآثار الواردة عن الصحابة، وهذا يتعارض مع مصنفات الحنابلة في القرن التاسع

(46) Christopher Melchert, «The Transition From Asceticism to Mysticism at the Middle of the Ninth Century C.E.», *Studia Islamica* 83 (1996): 51-70, esp. 64-9.

(47) الخطيب البغدادي: التاريخ 79:5

(48) أحمد بن حنبل: الورع، 117.

(49) The Encyclopaedia of Islam, new edn., s.n. «Ghulam Khalil», by Wilferd Madelung; Sezgin, GaS 1:511.

(50) Sezgin, GaS 1:511.

(51) Massignon, Recueil de textes inédits concernant l'histoire de la mystique en pays d'Islam (Paris, 1929)

(52) يذهب آخر من حقق الكتاب إلى أنه وحده البرهاري (لا غلام خليل) كان بإمكانه أن يعزو إلى أئمة من القرنين الثالث والرابع: القحطاني: «ترجمات الإمام البرهاري»، الشرح، 16، 54 = ابن أبي يعلى: الطبقات 33:2. ولكن في السياق بدا لي أن إشارة الكاتب إلى مصادر عقيدته («عن الله ورسوله... وأصحابه والتابعين وعن القرن الثالث إلى القرن الرابع) لا يُقصد بها القرنين الثالث والرابع وإنما الجيلين الثالث والرابع بعد النبي.

(53) Massignon, Recueil, 214 =

البرهاري: الشرح، 56 = ابن أبي يعلى: الطبقات 34:2؛ الخطيب البغدادي: التاريخ 393:1. ابن عطاء يذكر أبا حمزة من بين الذين ألقى عليهم القبض: ابن الجوزي: تلبيس، تحقيق حيدر الدين، 193 = تحقيق الحرستاني، 225.

التي لا تميّز بين حديث النبي وأثر الصحابي. ويصحّ مؤلف «شرح السنة»، كذلك بأنّ أشدّ الفرق بدعة وضلالة هم الرافضة والمعتزلة والجهمية (القائلون بأن القرآن مخلوق). وقد ورد ذكر عالمين من المعتزلة في الكتاب هما «أبو الهذيل (المتوفى: 850-849/235؟) وهشام الفوطي (المتوفى في النصف الأول من القرن 3/القرن التاسع) بوصفهما رأسي البدعة<sup>(54)</sup>. ثم إنّ أحمد بن حنبل لم يذكر أيّاً من أهل المعتزلة في كتب العقيدة التي صنفها، الأمر الذي يؤيد ما ذهب إليه بعض الدراسات المعاصرة من كون مذهب الاعتزال قد تأسّس قبيل نهاية القرن التاسع، أي بعد وفاة غلام خليل<sup>(55)</sup>. ومن يذهب في ظنه أنّ عبادة الله بالشوق والمحبة ظهرت ببغداد فقط وحدّر منها حنابلة بغداد فحسب فهو مخطئ؛ لأنّ جماعة أخرى ظهرت بالبصرة (حيث أقام البرهاري) ودعت إلى عبادة الله بالحب والشوق دون الخوف والرجاء<sup>(56)</sup>. وأخيراً فإنّ الكتاب يذكر فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(57)</sup>، وهذا نهج البرهاري كما سنرى لاحقاً، وإن كانت طريقتة في الأمر والنهي مختلفة مع نهج سابقه من أمثال أبي بكر الخلال وأحمد نفسه. ولم يكن هذا أيضاً نهج غلام خليل الذي لم ير تغيير المنكر بنفسه بل الحصول على تفويض من السلطان لتغييره اعتماداً على أدوات الدولة.

## الطبري والحلاج

كنا قد أتينا على ذكر أبي بكر الخلال غير مرة بوصفه أول من ترجم للحنابلة. وهو أول من جمع نصوص أحمد في مسائل الفقه، ويمكن اعتباره تبعاً لذلك المؤسس الفعلي للمذهب الحنبلي. ألّف الخلال كتابه «الحض على التجارة» ردّاً على من رضي بالتفرغ التام للعبادة والقعود عن كسب الرزق، وقد أفرد الصوفية بقسم حطّ فيه صراحة من قدرهم<sup>(58)</sup>. ولكن يحسن التنبيه على أنّ الصوفية الذين قصدهم الخلال هم معاصرو المروزي (قبل عصر الجنيد) الذين كان وجودهم يتحول شيئاً

(54) البرهاري: الشرح، 61، 63 = ابن أبي يعلى: الطبقات، 2: 37.

(55) حدد «هنري لاوست» ست رسائل في العقيدة لأحمد بن حنبل في كتابه:

La Profession de foi d'Ibn Batta (Damascus, 1958), xv, xvi.

وهي المذكورة في طبقات ابن أبي يعلى 1: 24-36، 130، 241-246، 311-313، 341-345. نصف هذه الرسائل فقط ذكر المعتزلة. انظر أيضاً:

Christopher Melchert, «Adversaries», 239.

(56) ابن الأعرابي: طبقات النساك عن الذهبي: التاريخ 20 (261-281 للهجرة): 277.

(57) البرهاري: الشرح، 58 = ابن أبي يعلى: الطبقات 2: 35.

(58) الخلال: كتاب الحض على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك، تحقيق أبو عبد الله محمود بن محمد الحداد (الرياض، 1407)، 143-145.

فشيئاً إلى عبءٍ على المجتمع. ثم إنَّ محنة محمد بن جرير الطبري (المتوفى: 310/923) التي تسبب فيها الحنابلة وقعت زمن الخلال. فقد حبسوه في بيته ومنعوا طلاب العلم من الدخول عليه وبلغ بهم الأمر حد منع دفنه نهائياً<sup>(59)</sup>. وقد وجدت أربعة تفسيرات متفاوتة الصحة<sup>(60)</sup> تشرح سبب غضب الحنابلة على الطبري. ولكن في أحد التفسيرات المعاصرة، يذهب «ماسينيون» إلى وجود صلة بين محنة الطبري وعلاقة الحنابلة بمتقدّمى الصوفية؛ إذ يرى أنّ تشنيعهم عليه سببه تأييده للحلاج الذي كان محبوباً زمنئذ<sup>(61)</sup>. ولكن لم يسق ماسينيون أي دليل على دعواه، ولا نجد ما يعضدها في أمهات المصادر.

لم يكن الخلال شيخ طائفة الحنابلة زمن محاصرتهم للطبري في بيته، بل شخص يقال له أبو بكر بن داود (متوفى: 316/929)<sup>(62)</sup>. وأبو بكر هو ابن المحدث الحنبلي أبي داود السجستاني لكن منزلته محدثاً لم تكن رفيعة، وقد درس التنجيم والطب والحديث ويبدو أنه تمذهب بالمذهب الحنبلي في أخرة من عمره<sup>(63)</sup>. ولقد استمرت الفتنة التي أيقظها بعد مماته؛ إذ دارت معارك دامية بين الحنابلة وأتباع الطبري سنة 317/927-928 حول مسألة إقعاد النبي على العرش<sup>(64)</sup>. ويبدو أن شيخ الطائفة كان حينذاك أبا بكر النجاد (المتوفى: 348/960) لأنّ ابن أبي يعلى جمع الأحاديث التي تؤيد تأويل الحنابلة للآية 79 من سورة الإسراء تحت اسمه<sup>(65)</sup>.

## البرهاري

بعد مرور عقد من الزمن، ظهر رئيس جديد للحنابلة هو [أبو] محمد البرهاري وكان تلميذاً لأبي بكر المزودي (خليفة أحمد بن حنبل) في الفقه والحديث (لم يكن أهل الحديث في القرن التاسع يفصلون تماماً بين العلمين). أخذ البرهاري الزهد والتنسك<sup>(66)</sup> عن سهل التستري، فنشأت بذلك وشائج جديدة

(59) الحاكم النيسابوري: تاريخ نيسابور، عن الذهبي: السير 14:272؛ الخطيب البغدادي: التاريخ 2:164؛ ابن الجوزي: المنتظم

217:13

(60) انظر:

Melchert, «Adversaries». 247fn.

(61) Massignon, Passion 1:32.

(62) ابن الجوزي: المنتظم 13:217؛ الذهبي: السير 14:277؛ ابن حجر: اللسان 3:295. يذكر ياقوت ثلاثة مجاهيل هم أبو عبد الله الجصاص، وجعفر بن عرفة، والبياضي؛ ياقوت: إرشاد الأريب، تحقيق إحسان عباس، 7 أجزاء (بيروت، 1993) 6:2450. يذكر ابن كثير في البداية والنهاية، 310، أنّ رأس الحنابلة كان أبا بكر بن داود، الذي خلف أباه شيخاً للظاهرة.

(63) ابن حجر: اللسان 3:296-294

(64) Ibn al-Atir, al-Ka-mil, s.a. 317; ed. C. J. Thornberg, 13 vols. (Beirut: Dar Sadir 1965-67).

(65) ابن أبي يعلى: الطبقات، 2: 11-9

(66) ابن أبي يعلى: الطبقات، 2: 18.

بين الحنابلة وطلّاع الصوفية. استنكر الحنابلة سنة 321/933 الدعوة إلى لعن معاوية على المنابر، فأمر الحاجب ابن يلبق بالقبض على البرهاري لكنه استتر ونُفي جماعة من أصحابه إلى البصرة. سنة 323/935، ارتفعت ضجة أصحاب البرهاري مطالبين بالتصدي للفواحش وصيانة الأخلاق فنهبوا الدكاكين واعتدوا على باعة الخمر وضربوا المغنيات وكسروا آلات الغناء. وفي سنة 327/939 اعتدى الحنابلة على جماعة كانوا يحيون ليلة النصف من شعبان، وقد تمكّن البرهاري مرة أخرى من الاستتار لكن جرى اعتقال صاحبه «الدلاء»، ثم قتله بعد محاولته الفرار. أما سنة 329/941 فقد حاول الحنابلة هدم مسجد للشيعة مرة أخرى بعد أن حرّضوا على هدمه سابقًا. وقد توفي البرهاري ذلك العام في مخبئه<sup>(67)</sup>.

يبدو أنّ البرهاري استمدّ مبدأ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من طبقة النساك الذين ظهروا قبيل نشأة التصوف التقليدي. ومثلما رأينا سابقًا فإنّ الصوفية الأوائل هم أول من اشتهر بإعمال هذا المبدأ وبتحدي السلطة السياسية القائمة منذ ظهور مفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما الحنابلة فلم يكن لهم تاريخ طويل في إعمال هذا المبدأ. وقد أثبت «ويلفرد مادلونج»<sup>(68)</sup> أنّ من تولى أمر فرض النظام العام بعد عزل الأمين وقبل تولي المأمون ليسوا أهل الحديث الحنابلة. وقد نقل ابن أبي يعلى ست مسائل في العقيدة لابن حنبل ولم يرد في أيّ منها وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لا ريب أنّ أحمد رأى وجوب هذا المبدأ (القرآني) لكنّه لم يشدّد عليه. بل على العكس من ذلك، معظم مصنّفاته العقديّة تشدّد على وجوب طاعة ولاة الأمور وتحذّر من الخروج عليهم<sup>(69)</sup>. وقد تضمنت مسائل أحمد الفقهية أقسامًا فرعية تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكنها عُنت بإصلاح الأفراد لا التشنيع على الحكام أو الاستعانة بهم على تغيير المنكر<sup>(70)</sup>.

صنّف أبو بكر الخلال كتابًا في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ولكنّ شدّد على وجوب الترفق بالناس واجتناب العنف والنصيحة لله سرًّا لا علنًا<sup>(71)</sup>. سأل رجل الأوزاعي قال: مَنْ أُمِرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى

(67) هذا الملخص لحراك الحنابلة مقتطف من

The Encyclopaedia of Islam, new . edn., s.n. «al-Barbahar»

وقد حرر المدخل «هنري لاوست». انظر أيضًا ابن أبي يعلى: الطبقات 44:2؛

Laoust, Profession, xxxvii-xli; Sabari, Mouvements, ch.4

(68) Wilferd Madelung, «The Vigilante Movement of Sahl b. Salama al-Khurasani and the Origins of Hanbalism Reconsidered», Journal of Turkish Studies 14 (1990):331-7; contra Ira M. Lapidus, «The Separation of State and Religion in the Development of Early Islamic Society», International Journal of Middle East Studies 6 (1975):363-85, esp. 382-4.

(69) ابن أبي يعلى: الطبقات 1:26، 130، 244.

(70) أقر هنا بتأثير «مايكل كوك» الذي أطلعني مشكورًا على الفصل المعني من كتابه الذي سيصدر قريبًا حول الأمر بالمعروف.

(71) الخلال: الأمر، 101، 108.

عَنِ الْمُتَكَبِّرِ؟ قَالَ: «مَنْ تَرَى أَنَّهُ يَقْبَلُ مِنْكَ»<sup>(72)</sup>. فَإِنَّ المرءَ إن وجد خمراً وجبت عليه إراقتة، فإن لم يستطع كسر الأواني، ولكن يجب ألا يتعرّض للخمر<sup>(73)</sup> إلا إذا مكشوفاً، فإن كان مغطى فلا يتعرّض له ولا يفتّشه<sup>(74)</sup>. أما إذا سمع المرء المزمار والطبل فلا يفتّش عن مصدره، ولا يكسر آلات الغناء إلا إذا رآها أمامه. والحق أننا بحاجة إلى فهم السبب الذي دعا البرهاري وأتباعه إلى الإعراض عن وصايا الخلال. لم يتطرق «كتاب شرح السنة» إلى مسائل الزهد والتنسك إلا في أسطرٍ قليلة، بيد أنّ تلك السطور لم تشدّ عن المبادئ التي أرساها سهل التستري. ينهى البرهاري عن أن يسرح الإنسان بفكره وخيالاته إلى التفكّر<sup>(75)</sup> في كيفيات الغيب ويحدّر ممن يدعي رؤية الله في الدنيا، ذلك أن طائفة من زهاد البصرة خُيّل إليهم كأنهم رأوا الله على عرش أو سرير وله أنوار تتشعشع. أخبر «السراج» سهل التستري بأنّ أحد هؤلاء يرى الله في المنام كل ليلة فطلب منه أن يتفل، فلما كان من الغد تفل فلم يره بعدها<sup>(76)</sup>. يرى البرهاري أن البيع والشراء حلال خلافاً للمعتزلة الذين ينكرون الكسب، وهذا يوافق كذلك المبادئ التي أرساها التستري رغم أن رأيه أقرب إلى ما استقرّ في المذهب الحنبلي<sup>(77)</sup>. يحدّر البرهاري من الجلوس مع من يدعو إلى الشوق والمحبة ومع من يخلو مع النساء، وهذا ما يشير ربما إلى الريبة إزاء سلوك متصوفة بغداد. ولكن لا نستبعد أيضاً أن يكون الأمر متعلقاً بالبصرة كذلك مثلما ذكرنا آنفاً، إذ لا نجد صعوبة مرة أخرى في الربط بين ما سبق وبين المبادئ التي أرساها سهل التستري الذي اشتدّ نكيره على بعض الزهاد الذين أنزلوا أنفسهم من مقام العبودية<sup>(78)</sup>.

لقد أتى مؤلّف «كتاب شرح السنة» على ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة على كل مسلم، ليس في ذلك شكّ (رغم اشتراطه إنكار المنكر باليد واللسان دون السيف)<sup>(79)</sup>. ورأى كذلك حرمة أن يكتّم المسلم «النصيحة أحدًا من المسلمين برهم وفاجرهم في أمر الدين؛ فمن كتّم فقد غشّ المسلمين...»<sup>(80)</sup>. لاحظ هذا الأسلوب الفريد الذي عاتب به «النوري» الجنيد حين قاله له: «يا أبا القاسم، غششتهم فأجلسوك على المنابر، ونصحتهم فرموني على المزابل»<sup>(81)</sup>. والبرهاري هنا

(72) الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، نواذر التراث 2 (القاهرة، 1975)، 124.

(73) الخلال: الأمر، 134، 138، 141. كذلك أحمد بن حنبل: الورع، 118.

(74) الخلال: الأمر، 115، 142.

(75) البرهاري: الشرح، 37 = ابن أبي يعلى: الطبقات 2:23.

(76) Al-Sarraj, The Kitab al-Luma' fi 'T-tasawwuf, ed. Reynold Alleyne Nicholson, E. J. W. Gibb Memorial Ser. 22 (London, 1914), 428.

(77) انظر السراج: للمع، 195.

(78) سهل التستري: كلام سهل، تحقيق الصقلي.

(79) البرهاري: الشرح، 58 = ابن أبي يعلى: الطبقات 2:35.

(80) البرهاري: الشرح، 43 = ابن أبي يعلى: الطبقات 2:26.

(81) أبو نعيم: الحلية 10:25؛ الخطيب البغدادي: التاريخ 5:132.



يقف موقفاً قريباً من التقليد الصوفي قبل الجنيد؛ لكنّ سهل التستري قد دعا كذلك إلى مناصحة المسلمين، ويغلب على ظننا أنّ البرهاري قد أخذ عنه ذلك<sup>(82)</sup>.

ثمّ إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أيضاً أحد أصول المعتزلة الخمسة، بيد أنّ البرهاري لم ينظر بعين الرضا إلى عقيدة الاعتزال<sup>(83)</sup> وذمّ الكلام أيّاً كانت غايته حتى لو كان دفاعاً عن الدين. قف عند متشابه القرآن والحديث ولا تقس شيئاً ولا تطلب من عندك حيلة ترد بها على أهل البدع فإنك أمرت بالسكوت عنهم فلا تمكثهم من نفسك<sup>(84)</sup>.

والمعتزلة أنفسهم لم يرضوا عن البرهاري وآرائه ورووا روايات تحط من شأنه<sup>(85)</sup>. ولكنّ قبوله بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الرغم من صمت أحمد وحذر الخلال يشي بموافقته المعتزلة إلى حدّ ما. ولقد شهدنا على مر تاريخ الحنابلة انجذاب بعضهم إلى طريقة المعتزلة على غرار أبي يعلى ابن الفراء وابن عقيل وابن قيم الجوزية وغيرهم<sup>(86)</sup>، ولعلنا نضيف إليهم البرهاري. ويبدو أنّه سلك مسلك عصره ابن سليم البصري الذي توفي في خمسينات القرن الرابع/ستينيات القرن العاشر، وقد أخذ العلم عن سهل التستري (على نحو غير مباشر ربما) وخالف الأشاعرة وتمذهب بالمذهب الحنفي.

وصفوة القول أنّه لم يقدّم دليل قوي على وجود صلة وثيقة بين الصوفية الأوائل ومعاصريهم من الحنابلة. ولم يكن أحمد قريباً من هؤلاء بل ناصب اثنين منهم العداء، السري السقطي والمحاسبي، وذمّ اجتماعهم على الذكر. أما محنتهم المعروفة بمحنة غلام خليل، فنستبعد أن يكون للحنابلة يد فيها رغم لزومهم الصمت إزاءها. وإن الاستعانة بالسلطان لفرض الآداب العامة لیتضارب مع ميل أحمد إلى اجتناب الدخول على السلاطين ومع القلاقل التي أثارها البرهاري في القرن اللاحق. ولكن من الغريب أن تجتمع في البرهاري أصول الحنابلة وأصول المتصوفة وإن على نحو خفي. في صدر القرن العاشر، انقطع فئام من الحنابلة إلى الصلاة والصوم<sup>(87)</sup> متأسين بطبقة الزهاد والنسك التي سبقت ظهور التصوف التقليدي في عصر الجنيد.

(82) سهل التستري: عن السلمي، المقدمة في التصوف والحقيقة، تحقيق يوسف زيدان، مخطوطات صوفية 1 (القاهرة، 1987)، 72 = المقدمة، تحقيق حسين أمين (بغداد، 1984)، 52، لكن في نسخة أمين نجد «التضحية للمسلمين، بدلا من «النصيحة».

(83) البرهاري: الشرح، 45= ابن أبي يعلى، الطبقات، 27:2 (ضد هشام الفوطي)؛ الشرح، 61، 63= الطبقات 2:37 (مرتان)؛ الشرح، 64= الطبقات، 2:38 (ضد ثمامة وأبي هذيل وهشام الفوطي).

(84) البرهاري، الشرح، 65= ابن أبي يعلى، الطبقات، 2:39.

(85) عبد الجبار: فضل الاعتزال، عن فؤاد السيد، تحقيق، فضل، 325.

(86) انظر مثلاً:

George Makdisi, «Ethics in Islamic Traditionalist Doctrine», pp. 47-63 in Ethics in Islam, ed. Richard G. Hovannisian (Malibu, Calif., 1985)

(87) ابن بطّة، عن ابن أبي يعلى، الطبقات 2:43.